المربعات الخزفية بمساكن مدينة الجزائر خلال العهد العثماني

د. زكية راجعي•

تزخر المباني التي أقيمت في العهد العثماني بالمربعات الخزفية فيكاد لا يخلو أي مبنى سواء كان ديني أو مدني أو من المنشآت العامة من هذا النوع من الكسوات الجدارية، و رغم هذا العدد الوافر لهذه المربعات إلا أنها ليست من الصناعة المحلية و لم يشر أي مصدر إلى ذلك مع العلم أن المنطقة عرفت مراكز لصناعة الخزف منذ العصور السابقة، وكان أول ظهور للمربعات الخزفية في تونس بواجهة محراب جامع القيروان، جلبت من بغداد ثم بدأ الصناع يسيطرون على هذه الصناعة منذ القرن التاسع الميلادي في القيروان و رقادة و المهدية[١] كما ظهرت مراكز أخرى مثل قلعة بني حماد في القرن الحادي عشر ميلادي، ثم بجاية في القرن الثاني عشر ميلادي[٢]، و في العصرين المريني و الحفصي وصل فن الصناعة الخزفية أوجه، إذن ما هي الأسباب التي أدت إلى عدم وجود هذه الصناعة في العصر العثماني، و جلب منتجاتها من الخارج؟

مصادر المربعات الخزفية بالجزائر:

يعتقد عمر غامد في مقال له نقلا عن الدكتور عقاب، أن سبب غياب صناعة المربعات الخزفية في الجزائر ربما يعود إلى اهتمام الجزائريين بشؤون البحر، بالإضافة إلى التبادل التجاري بينهم و بين الدول الأوروبية و كذلك بين تونس[٣]، إذ كان يتحصل على هذه المادة إما عن طريق التبادل التجاري أو عن طريق فرض أتاوات على تلك الدول، و يستبعد (فلبر) في مقال له في "وريقات الجزائر"، أنه تم حأخذها كغنيمة عن طريق القرصنة، فالسجلات البحرية لم تشر إلى ذلك، كما لا يمكن أن تكون بهذا العدد الهائل[٤]لذلك يعتقد أن مصدر هذه المربعات الخزفية هو أتاوة (ضريبة) كانت تفرضها الإيالة على البلدان الأوروبية مقابل حماية سفنها و عدم التعرض لها، أو تدفع كمبلغ مقابل افتداء الأسرى المسيحيين، أو تقدم كهدايا عند استبدال القناصل أو عقد معاهدات و اتفاقات تجارية، و لا يستبعد أنها كانت تقدم هذه

• دكتورة بقسم الآثار، جامعة الجزائر _٢_

[1] L.Golvin, « les céramiques du musée national d'archéologie d'Alger », dans :Congrés international d'art ,études historique de l'université de Provence ouvrage(publier avec le concours du C.N.R.S,1976),91.

[2] P.Ricard, pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du nord et en Espagne et en Sicile, Hachette,Paris,1924,153.

[٣] محمد الطيب عقاب، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني،(دار الحكمة، ٢٠٠٠،) ٢٠٣.

[4] H.Klein,les feuillets d'el Djezair,N°6,novembre 1958 :la villa du dey hussein, une visite a dar hamra,notion élémentaire sur les carreaux de faïence d'Alger, Bulletin des Amis du vieil Alger,(édition Feuillet d'el Djezair Alger,1919.)

الضرائب في شكل مواد عينية ربما من بينها البلاطات الخزفية[٥]، و يذكر (فونتير دو برادي) أيضا أنه عند خروج الأسبان من مرسى الكبير من بين المواد التي جلبت إلى الجزائر الزليج و كان يستخدم في زخرفة جدران المباني من قصور و منازل و حدائق.[٦]

فقد كانت الجزائر تصدر الكثير من المواد الزراعية كالحبوب و الزيوت و التمور و الزبيب و التين، بالإضافة إلى الأصواف و الجلود و الشموع و التبغ و المنسوجات و في مقابل ذلك كانت تستورد مواد أخرى من دول أوروبية مختلفة من ضمنها الزليج[٧] و يشير (فونتير دو بردي) عند وصفه لقصور الضباط أنها مبلطة بالرخام المصنوع بايطاليا و أن جدرانها مكسوة ببلاطات خزفية، و هي بألوان متعددة كانت تجلب من تونس و أسبانيا، تسمى زليج[٨] و ما يدعم ذلك هو وجود وثائق و سجلات ببيت البايلك و مصاريفه و السجلات الخاصة بعلاقات الجزائر بالخارج تذكر نقلا عن الدكتور لعرج، أن كمية كبيرة من بلاطات زليج صغيرة و أخرى كبيرة و تطلق عليها تلك الوثائق اسم زيلايج أنابولي أي زليج مدينة نابولي بإيطالي[٩].

و من بين الدول الأوروبية التي كانت تقيم علاقات تجارية مع الجزائر بشكل واسع هي هولندا، و للحفاظ على مركزها التجاري مع الجزائر فقد قبلت بالشروط التي وضعتها الإيالة، فقد كانت تدفع هدايا و ضرائب سنوية كبيرة بعضها نقدا و البعض الآخر عينا و كانت البلاطات الخزفية من ضمنها، و هناك مجموعة ضخمة من هذه البلاطات الهولندية التي تزين بها المباني.

كما كانت العلاقات التجارية مع تونس مزدهرة، و كانت السفن التجارية الجزائرية و التونسية تتنقل بين موانئ البلدين محملة بمختلف المواد و كان الزليج من ضمنها[١٠].

نستخلص مما سبق أن مصادر الزليج يعود إلى عدة بلدان أغلبها أوروبية، و هي هولندا، إيطاليا، أسبانيا، و الأسباب إما ترجع لظروف عسكرية أو سياسية بينما مع تونس تصدر الزليج لأسباب تجارية، و الجدير بالذكر أنه رغم التبادل التجاري

---

[٥] عبد العزيز محمود لعرج، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، (المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، الجزائر ١٩٩٠)، ١٤.

[6] Venture de paradis, Alger au XVIII siècle, Alger,(imprimerie libraire éditeur 1898),121,122.

[٧] نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر منذ أقدم عصورها إلى انتهاء العصر العثماني، مطبعة الثعالبية، ١٩٦٢، ١٤٠.

[8] Venture de paradis, op ;cit,p.121.

[٩] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع،ص١٥.

[١٠] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع، ص١٥،١٦.

الذي كان قائما بين الجزائر و الدولة العثمانية إلا أننا لا نجد إلا مبنى واحد يحتوي على المربعات العثمانية و هو ضريح سيدي عبد الرحمان، و حسب المصادر من بين المواد التي كانت تركيا تصدرها الأواني الخزفية[١١].

أهمية المربعات الخزفية و مواقعها

و قد كان انعكاس هذه الثروة الزخرفية واضح على العمارة فلم يخلو أي بيت أو قصر سواء كان داخل المدينة أو خارجها من هذه التربيعات الزخرفية بحيث كانت تزين جدران الفناءات و أطر العقود و النوافذ و سمكها، و تشكل بها أفاريز تحيط بأعالي جدران المطلة على الفناء، كما كانت تزين جدران الغرف بالمربعات الخزفية على ارتفاع أقل من متر، كما استخدمت لتبليط أرضيات الغرف و جدران السقائف، و قوائم السلالم، و القباب و لم تستعمل في الواجهات الخارجية للمباني.

و تظهر أهمية استخدام المربعات الخزفي في تبليط الأرضية يسهل الاعتناء بها و تنظيفها عكس الخشب الذي يكون عرضة للحشرات، بالإضافة إلى دورها في تلطيف الجو داخل الغرف إذا كانت درجة الحرارة مرتفعة، كما تضفي بهاء و متعة للناظر، و توضع البلاطات إما فردية أو في شكل لوحات و هذا قلما نجده في المنازل التي جاءت في هذه الدراسة[١٢].

تصنيف المربعات الخزفية

بناءا على ما سبق يمكن تصنيف المربعات الخزفية التي تزخر بها منازل الفحص حسب مصدرها فيما يلي:

المربعات الخزفية التونسية:

استعملت على نطاق واسع في تكسية أجزاء مختلفة من المنازل فشملت تقريبا كل العناصر كما نجد أمثلة منها في تبليط الأرضيات، و يعود هذا العدد الهائل للمربعات الخزفية التونسية التي استخدمت في المباني الجزائرية إلى التبادل التجاري كما سبق الذكر، و يعتقد أيضا أنه السبب في تفضيل المربعات الخزفية التونسية عن العثمانية راجع إلى صغر مقاساتها طول الضلع فيها ١٠سم، و هذا ما ساعد على التصرف فيها و نقله بسهولة و وضعه[١٣].

و قد عرفت تونس تطورا في هذه الصناع بسبب وفود الأندلسيين فجلبوا معهم تقنيات خاصة و ظهرت مراكز عديدة كالمهدية و تونس و سوسة و جربة و نابل و القلالين، و يعتبر هذين المركزين الأخيرين أهمهما، فحسب الدراسات ثبت أنهما مصدر المربعات الخزفي التي توجد بالجزائر خلال الفترة العثماني، و ساد انتشارها عبر بلدان البحر المتوسط منها طرابلس و مصر[١٤].

---

[11] venture de paradis, op ;cit,p28,29

[12] H.Klein,op ;cit,p 4.

[13] L.Golvin, Congrés international d'art,etudes historique de l'université de provence,91,92.

[14] P.lisse et A.Luis,les poteries de Nabeul, Institut des belles Lettres,Tunis 1956,157.

و للمربعات الخزفية بمدينة قلالين خاصية صناعية تميزت بها و تتمثل في وجود ثلاثة دوائر بارزة على سطح القطع و هي ناتجة عن أسلوب الحرق، و يمكن أن توضح هذه العملية في أن الصانع كان يقوم بتنظيم المربعات الخزفية و هي مزينة بالطلاءات بوضعية عمودية في الفرن على حوامل فخارية ثلاثية الأرجل تدعى المواشير فتظهر أثر هذه الحوامل في شكل دوائر مما يسهل التعرف عليها، و لم تختفي هذه الدوائر إلا بعد منتصف القرن ١٩م، حيث أدخلت طرق صناعية أوروبي[١٥].

لقد ظهرت المربعات الخزفية التونسية مقلدة للبلاطات الخزفية التي صنعت في تركيا، و يظهر ذلك من خلال الزخارف العثمانية و الألوان المتمثلة في اللون الأخضر الزرعي، إلا أن طريقة انجازها لم تصل درجة الاتقان و الدقة التي بلغتها البلاطات العثمانية.

و نستدل على ذلك من الأمثلة التي لدينا فهناك مجموعة من المربعات الخزفية التونسية المقلدة للبلاطات العثماني تزين سمك جدار نافذة إحدى الغرف بمنزل عبد اللطيف، قوامها عنصر نباتي مركزي و رئيسي يتمثل في ورود مهجنة أو ورقة محورة و حولها عناصر نباتية تتمثل في أوراق و أزهار محورة مرسومة بأسلوب عثماني (لوحة رقم ١صورة ١) تقوم على أرضية من الطلاء المخضر و هناك جزء من نفس النموذج السابق لكن زين العنصر الرئيسي باللون الأحمر الطوبي الشاحب بينما نجده باللون الأخضر في المثال السابق.

و يمكن أن نضم إلى هذه المجموعة نموذج آخر اتخذ من الشكل الهندسي حلية مركزية للزخرفة، و يتمثل في مربعين متراكبين و قد رسمت أضلاعهما بخطوط منحية تحصر أوراق نباتية و رسمت باللونين الأزرق و الأخضر أما أضلاع البلاطة فقد رسمت في وسط أطرافها صرات تتوسط عناصر ورقية مدببة، و وضعت بالقرب من أركان زهرة الربيع أما الأركان فقد زينت ربع التركيب من الشكل النجمي (لوحة رقم ١صورة٢)، و الجدير بالذكر أن هذه المربعات من النوع التي توضع في شكل تجميعة لكي يظهر التركيب العام للزخرفة لكنها حاليا موجودة في مكان ضيق لا يسمح بوضعها في شكل تجميعة. و يوجد ما يشبهها في متحف الفنون الإسلامية بالجزائر و بحجرة الضريح الملحق بجامع أبو ذهب بالقاهرة[١٦].

و من المربعات الخزفية التي تقوم أساسا على تجميعة من أربع مربعات خزفية يبلغ طول الضلع الواحدة ١٥سم، فقد رسم ربع الدائرة في شكل شريط عريض باللون البنفسجي الداكن، و أحيط من كلا الطرفين بأشرطة رفيعة زينت بالون البرتقالي و الأزرق، أما باق المساحة فقد زين بورقة نباتية مفصصة محورة عن شكلها الطبيعي، وعناصر نباتية تشبه الزخرفة الكأسية (لوحة رقم ١ صورة٣).

[١٥] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع، ص٥٧.
[١٦] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع، ص٧٩.

و آخر هذه المجموعة أي المربعات الخزفية المقلدة للمربعات العثمانية مثال واحد يضم كتابا بالخط العربي، جاء على شكل حزام بأعلى جدار صحن المنزل الداي بابا حسن، و في أحد الأروقة بنفس المنزل يزين كسوة من البلاطات الخزفية التي تكسو جدار الرواق، و قد وضعت المربعات بطريقة متقطعة بحيث ينقطع النص في عدة أماكن بمربعات خزفية أخرى، و هذا دليل على أنها وضعت في فترة لاحقة بنما فيما يخص التي تزين جدار الصحن فقد وضعت بطريقة منتظمة تتناوب مع مربعات من زخارف متنوعة، و تتمثل في مربعات ذات مقاس متوسط يبلغ طول ضلع الواحد ١٣سم، و تظهر الكتابة باللون الأبيض على أرضية زرقاء اللون منها ذات اللون الفاتح و أخرى من اللون الغامق فربما أنجزت في فترة لاحقة حين أصابها التلف، و نص الكتابة: "الصبر سلامة، العجلة ندامة، أبشر يا فتى إن الفرج قد أتى، منازل البركة" و نفس العبارة تتكرر على طول الإفريز(لوحة رقم ١ صورة ٤).

في بداية القرن ١٩م عرفت البلاطات الخزفية التونسية منافسة شديدة من طرف المربعات الخزفية الأوروبية التي نالت إقبالا شديدا عليها في الأسواق و لذا اضطر الصناع في تونس تقليد هذه البلاطات و هذا للحفاظ على الصناعة الخزفية و الظاهر أن ورشات مدينة نابل كانت الأكثر تقليدا لزخاف البلاطات الأوربية، و من النماذج التي ساد استعمالها في المباني مربعة مفردة مقاساتها ١٥سم، قوام زخارفها شكل نجمي يتوسط زخرفة نباتية من أوراق مفصصة تحوي دوائر تعرف بعفسة الصيد (قدم الأسد) و قد رسمت باللون الأصفر و الأزرق و الأحمر الطوبي على أرضية بيضاء (لوحة رقم٢ صورة١) هناك نموذج آخر يتمثل في تجميعة من أربع مربعات خزفية تبلغ مقاس الواحدة ١٣.٥سم تزين جدار أحد الأروقة بجنان الداي بابا حسن قوامها زخارف على شكل بحر يتوسطه عنصر زخرفي يعرف لدى مزخرفي تونس باسم (شطوب و قلوب) و هو عبارة عن ساق نباتي مورق و مزهر و لونت باللون الأحمر الطوبي و الأزرق و البني على أرضية بيضاء، و بالجهة الركنية عناصر ورقية باللون الأبيض على أرضية خضراء فاتحة (لوحة رقم٢ صورة٢) و تعتبر هذه البلاطات تقليدا للبلاطات الخزفية الإسبانية، إذ توجد أمثلة منها بقصر أحمد باي بقسنطينة ذات تصميم زخرفي واحد في شكله العام مع بعض الاختلافات في الزخارف، و ذات حجم كبير[١٧].

سبق و أن ذكرنا أن الخزافين في نابل اضطروا إلى تقليد الخزف الأوروبي، و رغم ذلك حاولوا المحافظة على الإرث المغربي الأندلسي، و ذلك باستعانة بالمواضيع الزخرفية التي كانت تزين المباني القديمة، و كان أغلب تلك المباني مزية بمربعات خزفية يعود انتاجها إلى معمل القلالين فأصبح من الصعب التمييز بين منتجات المدينتين.

[١٧] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع، ص٦٤.

و هناك نموذج يمثل هذا النوع من المربعات الخزفية يوجد بسمك النافذة بمنزل الثاني لمحي الدين، تبلغ مقاسات المربعة ١٥سم، تقوم عناصرها الزخرفية أساسا على العناصر الهندسية و المتمثلة في المربعات و المستطيلات، أما العناصر النباتية فثانوية و تتمثل في أزهار متعددة الفصوص و أوراق نباتية بسيطة و رسمت العناصر باللون الأزرق و الأصفر و الأخضر و البني على أرضية بيضاء. و قد زينت هذه المربعات بعناصر بيضاوية الشكل و التي تعرف محليا لدى المزخرفين باسم (قلوب) و هي من العناصر التقليدية في زخرفة البلاطات و الأواني الخزفية في تونس، و تستعمل هذه الزخارف كعناصر ثانوية مكملة للتصميم العام (لوح رقم٢ صورة ٣) ، و توجد مثل هذه النماذج بضريح سيدي عبد الرحمان بالجزائر و جامع جوربجي بالإسكندرية، مما يوضح أنها ترجع إلى القرن ١٨م، و هذا التصميم الزخرفي كان معروفا في المغرب كما الحال في مصر خصوصا و أن المدرسة الخزفية في مصر ساهم فيها صناع مغاربة، و هذا ما أدى إلى تشابه المنتوجات الخزفية بين البلدين.

و من المربعات التي يمكن ضمها إلى هذه المجموعة، مربعة خزفي تستخدم مفردة يبلغ طول الضلع فيها ١٣سم، قوام زخارفها عناصر هندسية عبارة عن خطوط متقاطعة على هيئة الخط الكوفي المربع رسم باللون الأخضر منها أمثلة بأحد الأروقة بمنزل الداي بابا حسن، نظمت بشكل حزام أسفل الجدار كما توجد أمثل منها بقصر الداي بالقلعة (لوحة رقم٢ صورة٤).

المربعات الخزفية الأوروبية:

يمكن التمييز بين نوعين من المربعات الخزفية الأوروبية التي استخدمت في زخرفة المنازل بالجزائر يختلفان فيما بنيها اختلافا كبيرا من حيث الأساليب الصناعية و الزخرفية و حسب الدراسة التي قام بها الدكتور لعرج تم تحديد مصادر هذين النوعين، الأول يتمثل في المربعات الخزفية من أصل هولندي و الثاني يرجع إلى إيطاليا، كما نجد بعض النماذج مصدرها أسبانيا، هذا بالإضافة إلى مجموعة من قطع البلاطات الخزفية التي يصعب تحديد أصل موطنها و قد وضعت تحت عنوان المربعات الخزفية المجهولة الأصل، و بناء على ما سبق تشمل هذه الدارسة ما يلي:

المربعات الخزفية الهولندية:

من المعروف أن هولندا كان لها نشاط تجاري خارجي كبير و واسع مع الدول الأوروبية و آسيا و دول المغرب العربي، و كانت حريصة على إقامة علاقات طيبة مع الجزائر كما سبق الذكر، و هذا للحفاظ على تجارتها، و من بين المواد التي كانت تصدرها إلى الجزائر المربعات الخزفية التي تزخر بها المباني الجزائرية في العهد العثماني، و التي يعود مصدرها إلى مدينة دلفت (Delft) فقد اشتهرت هذه المدينة بصناعتها الخزفية التي تتميز بالجودة و الإتقان و الجمال، و لقد بدأت تظهر

الصناعة الخزفية منذ القرن الخامس عشر[١٨] اتسمت بالبساطة الشديدة، ثم فيما بعد بدأ يظهر التأثير الصيني الذي يتميز باللون الأبيض و الأزرق فرسمت العناصر الزخرفية باللون الأزرق التركوازي الفاتح ، و على العموم مرت صناعة الخزف و المربعات الخزفية في دلفت بثلاثة مراحل ؛ الأولى عرفت تقليد للخزف الإيطالي و الذي سادت فيه الألوان التالية الأصفر و الأزرق الغامق و الأخضر النحاسي و الأرجواني و المنغنيزي، و تمتد هذه المرحلة من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن السابع عشر، أما المرحلة الثانية فتمتد من منتصف القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر، امتازت الزخارف برسوم السفن الشراعية و المناظر الريفية و الأزهار و ذلك باللون الأزرق، أما الفترة الممتدة من منتصف القرن الثامن عشر إلى نهايته فقد ساد استعمال على الرسوم اللون الأرجواني المنغنيزي الذي يميز العصر الركوكو[١٩]، كما اختصت الزخارف برسم المناظر الريفية لكن داخل دوائر مركزية ذات عناصر زخرفية مختلفة في أركان المربعات الخزفية.

في نهاية القرن السابع عشر اتجهت مدينة دلفت نحو صناعة الأواني الخزفية على أسلوب البورسلين الصيني تاركة انتاج البلاطات الخزفية للمدن الأخرى، و كانت تتصدرهم مدينة روتردام ، و من قبل أثرت صناعة مدينة دلفت على مراكز الصناعة في المدن الأخرى و وصل تأثيرها إلى المراكز الأوروبية لدرجة تسمية خزف هذه البلدان باسم خزف دلفت، و أصبح يصعب التمييز بينها خصوصا بين مدينتي دلفت و روتردام، و على هذا الأساس استنتج الدكتور لعرج حسب الدراسة التي قام بها للمربعات الخزفية التي تزين قصور الجزائر، أن بعض البلاطات الخزفية تعود إلى مدينة رورتدام و أخرى إما دلفت أو روتردام[٢٠].

و في نهاية القرن الثامن عشر، بدأت تعرف الصناع الخزفية الهولندية الضعف و التدهور، فأصبحت تنفذ الزخارف بأسلوب بسيط و تظهر غير متقنة، و السبب في هذا التدهور هو ظهور نوع جديد من الخزف في الأسواق الخارجية و هو الخزف الإنجليزي الذي عرف شهرة كبيرة نظرا لتناسبه مع الذوق المعاصر[٢١].

تحتفظ منازل الفحص على مجموعة هائلة من المربعات الخزفية الهولندية تختلف في تصميماتها الزخرفية إذ يمكن ترتيبها في مجموعات حسب موضوعاته الزخرفية، و تظهر كالآتي:

تجميعة من أربع مربعات خزفية طول ضلع القطعة ١٣سم، قوام الزخرفة زهرة ثمانية الفصوص لونت أنصافها باللون الأزرق، و في الأركان ربع نجمة عند

---

[18] G.Broussaud,les carreaux de faïence peints dans l'Afrique du Nord, collection du centenaire,(Alger 1930),9

[١٩] سم لمدرسة فنية، اشتق اسمها من كلمة Rocail معنى تصديف و هي تخالف المدرسة الكلاسيكية القديمة، تعتمد في الزخرفة على الخطوط المنحنية و الحلزونية و تمتاز بالرقة عن أسلوب الباروك.

[٢٠] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع، ١٢٥-١٢٨.

[21] G.Broussaud,les carreaux de faïence peints dans l'Afrique du Nord, p.10

اتصالها بالركن الآخر تظهر في شكل نجمة كاملة أو ما يشبه الأحجار الكريمة و بين النجمتين دائرة مزينة بشكل قلوب (لوحة رقم ٣ صورة ١) و هذا النوع من المربعات شائع الاستعمال في المباني فنجده في كسوة الجدارن و أطر النوافذ، و سمك الأبواب.

و هناك تجميعة أخرى من أربع بلاطات مقاس الواحدة ١٢.٥سم، قوام زخارفها دوائر مفصصة و زين سطح الدائرة الأخيرة بنقط مطموسة من اللون الأزرق و عند محيط كل ربع دائرة سلة أطرافها في شكل ورقة نباتية معقوفة القمة، و تبرز منها حزمة من الزخارف النباتية و المتمثلة في أغصان رفيعة جدا، و أزهار محورة، و بأركان التجميعة أرباع نجمة ثمانية الرؤوس محصورة بعناصر ورقية أخرى ثلاثية مفصصة على هيئة العناصر المركزية و قد يرسم التصميم بشكل معكوس بحيث يصبح العنصر المركزي عبارة عن نجمة ثمانية و بالأركان ربع العناصر المركزية و قد رسمت الزخارف باللون الأزرق على أرضية بيضاء (لوحة رقم٣ صورة ٢).

و ننتقل إلى مجموعة أخرى عنصرها المركزي زخرفة نباتي، و من بين هذه النماذج تجميعة من أربع مربعات خزفية طول ضلع القطعة ١٣سم، قوام عنصرها المركز أربعة أجزاء من ورقة الأقنثة نظمت في شكل دائرة، تحيط بها من الجهات الأربعة أنصاف أوراق الأقنثة تنبثق منها سيقان ينتهي أحدهما بزهرة القرنفل و آخر بزهرة اللالة و رسمت على بتلاتها ما يشبه حراشيف السمك، كما زينت الأركان المقابلة للمركز بورقة عريضة تبرز على جانبيها أوراق جعلت كقاعدة لها و رسمت الزخارف باللون الأزرق على أرضية بيضاء (لوحة رقم ٣ صورة ٣).

و يمكن ضم إلى التجميعة السابقة مربع خزفية تحيط بإطار نافذة المنزل الأول لمحي الدين، فهي تشبه إلى حد كبير الزخرفة السابقة و ذلك في انبثاق الزهرتين من سيقان تبرز من أوراق نباتية ذات فصوص و عروق، و تتمثل الزهرتين في زهرة القرنفل و الالة و لكن هذه الأخيرة رسمت في شكلها الطبيعي و في أحد الأركان ورقة عريضة ثلاثية الفصوص، تقابلها في الركن الآخر ربع لورقة ذات فصوص طويلة تظهر أنها تشكل في الأصل مركز لزخرفة التجميعة، و يظهر أن هذه المربعات لا توجد في مكانها الأصلي، فهي عادة ما تستخدم في كسوة الجدارن، و ليس في الإطارات، رسمت العناصر الزخرفية باللون الأزرق الغامق على أرضية بيضاء تكاد لا تظهر (لوحة رقم٣ صورة ٤).

كما نجد نوع من المربعات الخزفية التي تنظم بشكل حزام أفقي، و تتمثل عادة في تجميع مربعين حتى تكتمل الزخرفة، و تتكرر في المربعين المجاورين، قوام زخارفها عناصر نباتية متمثلة في زهرة ذات حجم كبير من ستة فصوص، و زهرة اللالة رسمت في شكل محور بتلاتها مسننة كما نجد زهرة مائية على اليمن و في الجهة الأخرى زهرة اللالة ينبثق منها غصن غليض يتصل بالزهرة الكبيرة، و يظهر

التأثير الصيني على هذه البلاطة الخزفية و ذلك في ظهور زهرة المائية، و تظهر الزخارف باللون الأبيض على أرضية زرقاء اللون (لوحة رقم ٣ صورة٥).

من الملاحظ أن الزخرفة القائمة على اللوحات نادرة في المنازل المدروسة و يظهر أنها كانت مخصصة للقصور، و هناك مثال وحيد يزين سمك جدار باب بإحدى الغرف بالطابق العلوي بمنزل الداي بابا حسن، وجاء في شكل ثلاث لوحات تتكرر فيها الزخارف لذلك نكتفي بذكر لوحة منها: و تتركب من ١٣ مربعة مقاس الواحدة ١٣سم، تنظم بشكل عمودي أي الواحدة تحت الأخرى و يتشكل الموضوع الزخرفي باتحاد مربعان، قوام الزخرفة شجرة كرم رسمت بشكل محور، عند قاعدتها فرخ الطاووس فارد ذيله في شكل مروح، و خلفه مناظر طبيعية تتمثل في جبل و نهر، بينما رسم عند قمة الشجرة عصفور في حركة، و يتدلى من فروع الكرمة عناقيد عنب كبيرة الحجم تارة من الجهة اليمنى و تارة الجهة الشمالية كما نجد على بعض الفروع طيور الطاووس ذيولها غير فاردة، اثنان منها إلى الأسفل و الثالث إلى الأعلى، كما يتدلى من غصون الشجرة أوراق العنب محورة في ثلاثة فصوص أما باق المساحة فقد رسمت حشرات تتمثل في النحل و حشرة اليعسوب، و تبدو في حركة، رسمت الزخارف باللون الأزرق المتدرج على أرضية بيضاء (شكل)، و هذا النوع من الزخرفة التي جاءت على شكل لوحة عنصرها الزخرفي شجرة و طائر الطاووس عادة ما نجده في القصور مثل قصر حسن باشا و مصطفى باشا و بقصر الداي القصبة أي اختصت به الطبقة الحاكمة و لا ننسى أن هذا المنزل كان من بين أربعة منازل أخرى هدمت كلها و لم يبق إلا هذا المنزل الذي يمكن اعتباره جزء من القصر.

ننتقل إلى نماذج تختلف عن السابقة من ناحية الموضوعات الزخرفية و تعتبر من مميزات الصناعة الخزفية التي انفردت بها مدينة دلفت، و تتمثل في مجموعة من المربعات الخزفية يبلغ عددها ٤٩ مربعة ذات مقاس واحد ١٣سم نظمت في حزام يعلو كسوة من المربعات الخزفية بأحد الأروقة في الطابق الوسطي، يتقدم القاعة المميزة بمنزل الداي بابا حسن، منها ٣٥ قطعة تمثل مناظر طبيعية تتمثل في بيوت ريفية و طاحونات هوائية منها مشهدين رسما داخل دوائر (لوحة رقم ٤)، لذلك نعتقد أنها ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أما القطع الأخرى فترجع إلى القرنين السابع عشر و الثامن عشر، و ضعت بين هذه القطع مربعات أخرى تشبهها من ناحية المواضيع الزخرفة و لكن تختلف عنها من حيث أنها رسمت عناصرها الزخرفية باللون البرتقالي على أرضية من اللون الأزرق بينما المجموعة السابقة فرسمت باللون البنفسجي، كما أحيطت جميع الموضوعات الزخرفي بدوائر و زينت أركان المربعات بأوراق نباتية بسيطة تبرز منها سيقان رفيعة الخطوط، و رسمت العناصر الزخرفية باللون البرتقالي و الأخضر و الأزرق على أرضية بيضاء، و الجدير بالذكر أن انتشار الألوان في هذا النوع من المربعات الخزفية يرجع إلى

منتصف القرن الثامن عشر، بتأثير من أسلوب الركوكو، و معظم الموضوعات الزخرفية منازل ريفية فخمة و قطعة واحدة من المربعات الخزفية تمثل مركب شراعي في البحر، و مربعين يمثلان مشاهد لبقايا آثار قديمة متمثلة في أعمدة (لوحة رقم ٥)، و يظهر أن هذه المربعات أعيد تركيبها على الجدار في وقت لاحق و هذا نظرا لاختلاف الفترات التي تنسب لها، فجمعت ونظمت في هذا الرواق لكي لا تضيع.

المربعات الخزفية الإيطالية:

تعتبر إيطاليا من أهم الدول التي كانت تقيم علاقات تجارية مع الجزائر، خاصة مدينة ليفورن و مدينة البندقية، و قد كانت تصدر هذه الأخيرة المرايا و الزجاج و الخزف مقابل المنتوجات الزراعية و الحيوانية، كما تعاملت الجزائر مع مدن إيطاليا أخرى منها صقلية و جنوة، فقد كانتا تصدران لها الخزف و المرايا و الأقمشة الفاخرة[٢٢].

لقد ظهرت مراكز عديدة بإيطاليا لصناعة الخزف منها المتواجدة بفاينزا و فلورانس و نابولي و صقلية، و قد أثبتت الدراسة التي قام بها الدكتور لعرج أن معظم المربعات الخزفية التي كانت تستوردها الجزائر من إيطاليا مصدرها مركز نابولي و صقلية.

تميزت الصناعة الخزفية بصقلية بتأثرها بالتيار الإسباني، و هذا عن طريق تأسيس صناع أسبان لورشات لهم بالمنطقة، واستخدموا الطرق الصناعية التي كانت معروفة بمالقة، و كما هو معروف أن مصانع صقلية كانت تنتج الخزف من الطراز الإسلامي و قد كانت مزدهرة في القرن الثامن عشر.

و كانت الزخارف التي تستخدم لتزيين المنتجات الخزفية في صقلية عبارة عن زخارف هندسية و نباتية و مراوح نخيلية، و تحدد باللون البنفسجي، و تقوم ألوانها على اللون الأزرق و الأصفر و البرتقالي و اللون الأخضر و هذا الأسلوب كان سائدا في القرن الثامن عشر.

و في الواقع أن المنتجات الإيطالية كانت تجارية بالدرجة الأولى و لم تكن تتميز بخصائص صناعية و فنية حسب المراكز، و ما هو واضح أن الجزائر كانت تتعامل مع بعض المراكز بشكل واسع في مواد البناء و البلاطات مثل صقلية و نابلي، و ليفورن و جنوة، لذلك يمكن تحديد عدة مربعات من أصل إيطالي إذ تظهر فيها الخصائص الصناعية و الفنية واحدة و الاختلاف بسيط[٢٣].

---

[٢٢] عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل ١٨٣٠،(الطبعة الأولى،١٩٧٢)، ٣٠٨،٣٠٧

[٢٣] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع،١٤٦،١٥٨،١٥٩.

نبدأ بالنماذج التي ساد انتشارها في المباني الجزائرية إذ تغطي مساحات واسعة من جدران الأروقة و تحيط بأطر العقود المطلقة على الأفنية، كما نجدها في كسوة الجدران الداخلية للغرف، و تتمثل في تجميعة من أربع مربعات خزفية يبلغ مقاس الواحدة ١٣سم، قوام زخارفها أزهار القرنفل مشعة من دائرة مركزية تحيط بها حلية من أوراق نباتية و تتجه هذه الزهور نحو الأركان الخارجية مشكلة مع المربعات المجاورة عنصر مركزي، و هذا النموذج من المربعات الخزفية يعطي تكوينة زخرفية بديعة أما الألوان فقد استعمل كل من اللون الأزرق المتدرج و البرتقالي و الأخضر و حددت العناصر الزخرفية باللون البنفسجي مما يزيدها وضوحها على أرضية مزرقة (لوحة رقم٦ صورة١) يرى البعض أن هذا المثال اسباني من القرن الثامن عشر، بينما يرجح البعض الآخر إلى إيطاليا، و يحدد مركزه الصناعي و هو صقلية التي كانت تصنع المربعات الخزفية تتناسب مع الذوق الإسلامي[٢٤]

أما المثال الثاني لهذه النماذج فعبارة عن تجميعة من أربع مربعات خزفية يبلغ مقاس المربعة الواحدة ١٢سم، قوام عنصرها المركزي مربعات متداخلة فيما بينها غير منتظمة الأضلاع تشبه أوراق مفصصة و أوراق على هيئة الأقنثة محورة، رسمت باللون الأبيض على أرضية من اللون الكوبالت، و ما يميز هذه المربعات لونيها الأزرق و الأصفر فاللون الأزرق التركوازي يتدرج إلى الداكن، و يتميز الأصفر ببريق نادرا ما نجده في المربعات الأخرى، و يميل لونه إلى اللون البرتقالي، و قد حددت العناصر الزخرفية باللون البني (لوحة رقم٦ صورة٢) و لقد استعمل هذا النموذج بكثرة و في عدد كبير من المبان فنجده على سبيل المثال في قصر خداوج العمياء، جدران صحن الجامع الكبير بقسنطينة، كما نجد نفس التصميم الزخرفي في الكسوة التي تزين جدارن القاعة الشرفية بمنزل الداي بابا حسن و لكن رسمت الزخارف باللون الأزرق و حددت العناصر الزخرفية باللون الأصفر.

و هناك نماذج تمثل خصائص الزخرفة في عصر النهضة الإيطالية، نجد أمثل منها بقصر الباي أحمد بقسنطينة و الذي كما نعلم جلب المربعات الخزفية من إيطاليا، و الأمثلة التي لدينا تزين في شكل كسوات جدران الأروقة المطلة على الصحن في منزل عبد اللطيف كما نجد أمثلة منها في جدران أحد الأروقة بالطابق الوسطي بمنزل بابا حسن و لكن جاءت في شكل تجميعة مفردة، و في نفس المنزل زينت بها إحدى مقاعد بالفناء و يظهر أنها ليست في مكانها الأصلي، كما نجدها في شكل كسوة جدارية تزين أسفل جدران إحدى الغرف بالمنزل الأول لمحي الدين، و تتمثل في تجميعة من أربع مربعات خزفية يبلغ مقاس الواحدة ١٣سم، قوام الزخرفة عنصر مركزي يتمثل في زهرة متعددة الفصوص أعتقد أنها توحي بزهرة عباد الشمس لكناه

[٢٤] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع، ١٤٦.

مرسومة بأسلوب الباروك[٢٥]، و يحيط بالزهرة دائرة كبيرة تشكلت من فروع نباتية ملتوية تتفرع عند إحدى نهايته إلى خمسة وريقات، أما الطرف الآخر فقد رسم بشكل قوس السهم، و يمتد مع هذا الفرع غصن رفيع رسم باللون البني الداكن، تبرز منه سيقان في داخل الدائرة تتدلى منه عناقيد العنب و خارجها أوراق العنب خماسية الفصوص، و رسمت العناصر الزخرفية باللون الأزرق المتدرج و الأصفر و الأخضر و البني على أرضية مزرقة و حددت العناصر باللون البنفسجي (لوحة رقم ٦ صورة ٣) أما المثال الآخرى فنجد نفس التصميم العام الزخرفي ، و الاختلاف في أنه وضعت عناقيد العنب و الأوراق بطريقة متناوبة و تنقص بعض الأزهار و يظهر أن هذه القطعة أنجزت في فترة لاحقة بحيث تظهر زخارفها و ألوان أقل دقة و إتقان من السابقة (لوحة رقم٦ صورة ٤).

كما نجد نماذج أخرى تدل على البساطة في الزخرفة إذ رسمت بطريق تجريدية و تتمثل في مربعات تبلغ مقاسها ٢٠سم، قوام زخرفتها أربع دوائر تتقاطع فيما بينها عند الأطراف مشكلة زهور من أربعة فصوص تشبه زهرة الربيع و قد حددت مساحة فصوصها بخطوط مستقيمة من اللون البرتقالي أما الفراغ الذي يقع بين فصوص الأزهار على شكل مربع غير منتظم الأضلاع زين مركزه بالدوائر زرقاء اللون و عند الأطراف رسمت أنصاف أزهار من ثلاثة فصوص يكتمل شكلها بالبلاطات المجاورة (لوحة رقم٦، صورة٥).و يوجد مثال آخر يشبهه نجده يكسو جدار السلم بمنزل الرايس حميدو، تتمثل زخارفه في زهرة الربيع الناتجة من تقاطع الدوائر(لوحة رقم ٦ صورة٦).

و من النماذج التي سيطرت عليها الزخارف الهندسية ينسبها السيد بروسو إلى المصانع الإيطاية نجد أمثل منها بقصر الباي بقسنطينة و المثال الذي لدينا يقع في إحدى الغرف بالمنزل الأول لمحي الدين استخدم لتبليط الغرفة و تبلغ مقاس البلاطة ٢٠سم، تتمثل عناصر الزخرفية في سداسيات الشكل رسمت باللون الأسود و منها التي أضيفت لها خطوط باللون الأخضر و زينت مراكزها بزهرة يبرز منا شكل هندسي مشع بالون الأسود و عند مركز البلاطة الذي زين سطحها باللون الأزرق يتخلله شكل مشع أيضا رسم بخطوط بيضاء اللون (لوحة رقم٧ صورة١) يتبن من خلال هذه النماذج التي طغت عليها الزخارف الهندسية أنها كانت تصنع في إيطاليا خصيصا للبلاد الإسلامية.

[٢٥] مدرسة فنية ظهرت في أوروبا، مصدر التسمية إما إسباني Borrucco أو برتغالي Baroco معناه اللؤلؤة المشوه، تمتاز زخارفها بالخطوط المنحية و الحلزونية مثل الطراز الركوكو لكنها تتميز عنه بالخشونة و الضخامة.

المربعات الخزفية الأسبانية:

يوجد نموذجين يتميزان بنفس الخصائص الصناعية و الفنية فقد رسما بنفس الألوان إذ استعمل اللون الأحمر الطوبي و البرتقالي و الأصفر و الأزرق و الأخضر و البني و هذه خصائص الألوان التي تستعمل في أسباني، كما نجد مثال يشبهها صنفه بروسو من ضمن المربعات الخزفية الأسبانية[٢٦]، و الملاحظ لهذين البلاطتين بدون شك تنسب إلى البلدان الأوروبية لوجود عنقود العنب كما رأيناه سابقا في المربعات الخزفية الإيطالية و الذي يعتبر من العناصر الزخرفية التي استخدمت في عصر النهضة، و لكن لا يمكن نسبتها إلى إيطاليا نظرا لظهور الألوان مختلفة عنها كما نلاحظ هناك تغيير في طريقة الرسم لا تشبه الأسلوب الإيطالي الذي يظهر أكثر دقة في تحديد العناصر الزخرفي، كذلك و جود زخرفة من عنصر ثمرة الرمان التي تعتبر من العناصر الزخرفية التي كانت ترسم على الأواني الخزفية الإسلامية لأن الرمان ثمرة من ثمار الجنة، و كما سبق الذكر أن الأسبان تأثروا بالخزف الإسلامي و ظهر تأثيرهم على منتجاتهم الخزفية هذا مع التذكير أن أسبانيا كانت من ضمن البلدان التي تصدر المربعات الخزفية للجزائر في القرن الثامن عشر[٢٧].

و يتمثل النموذج الأول في مربعة خزفية تبلغ مقاساتها ١٣سم × ٦.٥سم تزين عتبة مدخل إحدى الغرف بالمنزل الثاني لمحي الدين قوامها ثمرة الرمان مفتوحة جزئيا و بأحد جانبها عنقود العنب و بين ورقتين مسننتين الأطراف، أما الجانب الآخر فقد زين بزهرة اللالة تبرز منها ورقة مدببة و عند طرف المربعة الخزفي خطوط منكسرة متعددة الألوان يكتما شكلها بالمربعة المجاورة و هنا العناصر الزخرفية رسمت في هذه البلاطة المجاورة بطريقة مقلوبة و هذا الأسلوب الزخرفي عادة ما نجده في الخزف الأسباني (لوحة رقم٧ صورة٢).

أما المثال الثاني فيتمثل في تجميعة من أربع مربعات خزفية يبلغ مقاس الواحد ١٥سم، قوام زخارها زهرة كبيرة من خمسة بتلات تنبثق منها سيقان باتجاه الجانبية تنتهي بزهرة الالة تبرز منها ورقة تشبه التي توجد في المربعة السابق، أما السيقان الوسطى فمنها التي تحمل ثمرتين الرمان واحدة مفتوحة جزئيا و الأخرى غير متفتحة أما الساق الأخير فيحمل عنقود العنب، و قد وضعت هذه العناصر الزخرفية على أوراق كبيرة مسننة و أحيطت الزخرفة بخطوط ملونة تنحني في شكل عقد عند الزهرة الكبيرة، و شكلت هذه الخطوط مع المربعات الأربعة شكل مربع تبرز أضلاعه في شكل عقود نصف دائرية، أما الألوان فقد استخدم اللون الأحمر الطوبي و البرتقالي و الأصفر و الأزرق المتدرج و الأخضر المتدرج على أرضية بيضاء و حددت العناصر الزخرفية باللون البني (لوحة رقم٧صورة٣).

[26] G.Broussaud,op ;cit ,pl11,E.
[27] Venture de paradisop ;cit, p.121

المربعات الخزفية المجهولة الأصل:

تتضمن هذه الدارسة مجموعة المربعات الخزفية المجهولة الأصل و التي لم يسبق لها أن صنفت و لكن عن طريق الملاحظة و المقارنة بالبلاطات السابقة و المصنفة نجدها تمتاز تقريبا بنفس الخصائص الفنية التي رأيناه في البلاطات التي غالبا ما حددت مصادرها إما إيطاليا أو تونس أو إسبانيا و ربما نجد مصادر أخرى لم نشر إليها في السابق.

فأول نموذج نتعرض له عبارة عن لوحة تتركب من ١٢ مربعة خزفية يبلغ مقاس المربعة الواحدة ١٣سم، يحيط باللوحة إطار ما عدا في جزئها السفلي مشكل من مربعات خزفية مستطيلة الشكل لونها أخضر تبلغ مقاساتها ١٣سم × ٦.٥سم، و تقع هذه اللوحة في إحدى جدران فناء المنزل الأول لمحي الدين و يظهر أنها كانت مدرجة بعين جدارية بحيث نجد أثر الأنبوب ما زال قائم، و ما يؤسف له أنها طمست بطبقة من الجص فأصبح لونها شاحب و الزخارف غير واضحة، و قوام الزخرفة زهرية تنبثق منها باقة من الزهور الكبيرة الحجم و تشكلت من تجميع تسع مربعات خزفية أما ثلاث مربعات الأخرى فقد استخدمت كحزام وضع أسفل اللوحة، تبدو الزهرية في شكل دورق يقوم على قاعدة تأخذ شكل الزهرة المقلوبة و رسمت المقابض في شكل أوراق نباتية ملتوية على شكل حرف (s) اللاتيني و تنوعت الزهور بين ذات البتلات و الفصوص و منها التي تشبه زهرة اللالة المحورة أو المرسومة بالأسلوب الأوروبي، و من الزهور المتناثرة على الأرضية، و يظهر الدقة و الإتقان في رسم هذه الزهور و تلوينها بحيث تظهر مجسمة و هذه الخاصية نجدها في المربعات الخزفية الإيطالية و بالتحديد إما مصانع صقلية أو تاجرونة[٢٨].

أما الألوان فقد استخدم اللون الأزرق الداكن و الأزرق الرمادي و البرتقالي المتدرج و الأخضر،أما فيما يخص ثلاث مربعات السفلية التشكل قاعدة للوحة فقوام زخارفها عنصر نباتي تنتهي قمته في شكل هلال و على جانبيه أنصاف المراوح النخيلية تتخذ شكل أنصاف دوائر تضم نصف زهرة تكتمل شكلها في المربعة المجاورة، أما الألوان فقد استخدم اللون الأزرق الداكن و البرتقالي و على العموم تشبه المربعات الإيطالية و يظهر أن هذه المربعات أضيفت في وقت لاحق (لوحة رقم٧ صورة٤).

و من بين المربعات الخزفية التي أعتقد أنها من مصدر أسباني تجميعة من المربعات الخزفية يبلغ مقاس الواحدة ١٣سم، تصميم الزخرفة شكل نجمي باللون الأسود في المركز تحيط به بطريقة متراكبة أشكال نجمية من أربع شعب، آخرها نحو الخارج شكلت بواسطة فرع نبات مورق و يبرز بين كل شعبتين ساق غليظ ينتهي بزهرة القرنفل تتجه نحو الأركان الخارجية التي زينت بأغصان مورقة تبرز

[٢٨] عبد العزيز محمود لعرج، نفس المرجع، ص١٥٩

من ربع زهرة أما وسط الأضلاع فقد زين بنصف رصيعة و في الأصل تنظم هذه المربعات في شكل تجميعات بحيث تصبح الرصيعة هي مركز الزخرفة و في شكلها العام تحدث مظهرا جميلا، و قد رسمت الزخارف باللون الأصفر الساطع و الأزرق و الأخضر على أرضية بيضاء و نلاحظ أن الأسلوب الذي نفذت به الزخارف و خاصة زهرة القرنفل يشبه الأسلوب الإيطالي و لكن لم تصل إلى الدرجة التي نراه في الخزف الإيطالي و على هذا أعتقد أنها أسبانية مقلدة للمربعات الإيطالية (لوحة رقم٨، صورة ١).

نوع من المربعات الخزفية ذات مقاسات كبيرة تبلغ ٢٠سم، البعض منها يزين جدران السلم بمنزل الرايس حميدو و البعض الآخر وضع بأروقة الفناء المشترك بين المنزلين الثاني و الثالث لمحي الدين، في تصميمها الزخرفي العام تشبه المربعات الخزفية التي تزين الخزائن الجدارية بدار السلطان، رسمت باللون البنفسجي على أرضية بيضاء أي مصدرها هولندي، قوام عناصرها الزخرفي تمثلت في الهندسي المرسوم بأسلوب نباتي، بينما في الأمثلة التي لدينا رسمت الزخارف بالألوان منها الأخضر و الأصفر و الأزرق و منها التي تتوسط الفراغ أي مركز المربعة بزهرة متعددة الفصوص باللون الأحمر كما هو الحال في النماذج التي توجد بمقعد بمنزل الرايس حميدو (لوحة رقم٨ صورة٢) و منها التي رسمت باللون الأزرق كما هو الحال بمربعات الفناء السابق الذكر و جدران السلم بمنزل الرايس حميدو (لوحة رقم٨ صورة٣) كما نجد بدل زهرة اللالة في الأركان المربعة في المثال الأول عوضت بشكل فص مزين بخطوط مستقيمة من اللون البرتقالي و هذا الأسلوب نجده في الزخرفة لإيطالي، و في كلا البلاطتين حددت العناصر الزخرفية باللون الأسود، لذلك أعتقد أن المثال الأول أسباني تقليد للمربعات الخزفية الهولندية و ما يدعم ذلك وجود اللون الأحمر الذي لم يسبق أن صادفناه في المربعات الخزفية الإيطالية، أما المثال الثاني و الثالث فهو إيطالي المصدر و تقليد للبلاطات الخزفية الهولندية أيضا.

هناك نموذج آخر من المربعات الخزفية رسمت عناصره الزخرفية الهندسية في شكل خطوط لينة أصبحت تشبه الأوراق النباتية، و يتمثل في مربعة خزفية يبلغ طول الضلع فيها ٢٠سم، قوام زخارفها عنصر مركزي يتمثل في زهرة مشعة تحيط بها مثمنين متداخلين فيما بينهما، و قد رسمت أضلاعها في خطوط لينة تبدو مقعرة أما المساحة الباقية فقد زينت بخطوط مستقيمة من اللون البرتقالي و في الأركان زخرف غير واضحة تعرضت للتلف، كما رسمت بعض الفروع الملتوية باللون البني على الخطوط المستقيمة البرتقالية اللون، و استعمل اللون الأخضر و الأصفر الفاتح و الأزرق و حددت العناصر الزخرفية باللون الأسود (لوحة رقم٨ صورة٤).

مثال آخر من نفس النمط تمثله مربعة خزفية تبلغ مقاسها ٢٠سم، توجد معزولة بمنزل الداي حسين و كسر جزء منها قوام زخارفها فص كبير الحجم لزهرة محورة رسمت على مساحتها شبكة تشكلت من تقاطع خطوط مستقيمة برتقالية اللون

أنتجت مربعات زينت بنقط من اللون البرتقالي و رسمت الألوان باللون الأخضر و الأزرق و البرتقالي و البني (لوحة رقم٨ صورة٥).

يتبن لنا مما سبق أم هذه المربعات الخزفية تتشابه من ناحية الأسلوب الزخرفي أي الزخرفة الهندسية ذات الشكل النباتي، مع استخدام نفس الألوان في جميع المربعات الخزفية، و تتمثل في اللون الأزرق و الأخضر و البرتقالي و البني و اللون الأسود في تحديد العناصر الزخرفية و هذا الأسلوب مستحدث في زخرفة المربعات الخزفية الإيطالية.

تتماثل هذه المربعات الخزفية في أسلوب زخرفتها بحيث تستعمل العناصر الهندسية و قلة الزخرفة النباتية، كما اقتصرت الألوان على اللون الأخضر و الأزرق بالإضافة إلى اللون الأسود و هذا النوع من البلاطات ينسبها بروسو إلى مصدر إيطالي، و هنا يظهر غياب الألوان البراقة و العناصر الزخرفية النباتي المتنوعة التي تتميز بها المربعات الخزفية التي رأيناه في الأمثلة السابقة الأولى، و يظهر أنها أنجزت في فترات متؤخرة أي بداية القرن التاسع عشر.

و من بين النماذج التي يصعب تحديد مصادرها؛ أجزاء من مربعة خزفية توجد بمنزل الداي حسين، نزعت من مكانها الأصلي، قوام الزخرفة قوس سهام مرسوم بحجم كبير، تزين أطرافه أوراق نباتية باللون البني، كما زخرفت المربعة بفروع نباتية تبرز منها أزهار متنوعة، و قد حددت العناصر الزخرفية باللون البني (لوحة رقم٨ صورة٦)، و من المعروف أن الزخرفة بقوس سهام من خصائص الزخرفة الإيطالية، و لكن أعتقد أن هذه المربعة من صناعة تونسية نظرا لظهور الطينة الحمراء اللون بينما نجد الطينة الأوروبية رمادية اللون، كما رسمت العناصر الزخرفية بطريقة خشنة تنقصها الدقة و الاتقان عكس الزخارف الإيطالية التي غالبا ما تظهر أكثر رقة، بالإضافة إلى الظاهرة التي سبق و أن ذكرناها و هو تقليد المربعات الخزفية الإيطالية من طرف الصناع التونسيين.

نجد كذلك مجموعة مربعات خزفية رسمت بالأسلوب العثماني تكسو قوائم و جدران سلم المنزل الثاني لمحي الدين، و تبلغ مقاس الواحدة ١٥سم، قوام الزخرفة أزهار متعددة الفصوص متقابلة و ملئت المساحة بأوراق نباتية مسننة و فروع و أغصان نباتية و استخدم اللون الأزرق و الأخضر و الأحمر و الأرجواني على أرضية مخضرة، و تظهر الزخارف بارزة عن الأرضية و يذكر (بروسو) أن بروز العناصر الزخرفية من خصائص الخزف الذي من كان يصنع بمرسيليا (لوحة رقم٨ صورة٧) و أعتقد أن هذه البلاطات تقليد من طرف الصناع الأسبان أو التونسيين لأن اللون الأحمر لم يستخدم في خزف مرسيليا.

يتبن مما سبق أن أسلوب الخزفية بالمربعات الخزفية أصبح من الخصائص المسكن الجزائري في الفترة العثمانية بعدما كانت تستخدم الفسيفساء الخزفية التي تتطلب وقتا أطول في انجاز و أكثر تكلفة، فعوضت بالمربعات الخزفية التي كانت

تجلب من الخارج و أصبحت تكسى بها الجدران و القباب و أطر النوافذ و العقود بالمنازل، كما يمكن تصنيفها حسب المراكز التي صنعت فيها بناءا على خصائص تميزها و قد تمثلت في الألوان و العناصر الزخرفية و في بعض الأحيان لون الطينة، و أعتقد أن هذه الدراسة للمربعات الخزفية كانت نتيجة للمقارانات و استنتاجات للدراسات السابقة لا تكفي وحدها بل يجب أن تدعم بتحاليل مخبرية للطينة و الألوان حتى تصبح النتائج أكثر دقة.

مراجع البحث

_حلمي (عبد القادر)، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل ١٨٣٠،(الطبعة الأولى،١٩٧٢.
_عبدالقادر (نور الدين)، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر منذ أقدم عصورها إلى انتهاء العصر العثماني، مطبعة الثعالبية، ١٩٦٢.
_عقاب (محمد الطيب)، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، ٢٠٠٠.
_لعرج (عبد العزيز محمود)، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي،المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، الجزائر ١٩٩٠.

_G.Broussaud,les carreaux de faïence peints dans l'Afrique du Nord, collection du centenaire, Alger 1930
_L.Golvin, « les céramiques du musée national d'archéologie d'Alger », dans :Congrés international d'art ,études historique de l'université de Provence ouvrage(publier avec le concours du C.N.R.S,1976).
_H.Klein,les feuillets d'el Djezair,N°6,novembre 1958 :la villa du dey hussein, une visite a dar hamra,notion élémentaire sur les carreaux de faïence d'Alger, Bulletin des Amis du vieil Alger, édition Feuillet d'el Djezair Alger,1919.
_Llisse et A.Luis,les poteries de Nabeul, Institut des belles Lettres,Tunis 1956.
_Ricard(p), pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du nord et en Espagne et en Sicile, Hachette,Paris,1924.
_Venture de paradis, Alger au XVIII siècle, Alger, imprimerie libraire éditeur 1898

صورة١

صورة ٢

صورة ٣

صورة ٤
لوحة رقم ١
مربعات خزفية مرسومة بالأسلوب العثماني

صورة ١

صورة٢

لوحة رقم٢

مربعات خزفية مرسومة بالأسلوب الأوروبي

صورة ٣

صورة ٤

مربعات خزفية مرسومة بالأسلوب المغربي الأندلسي

صورة ١

صورة ٢

صورة ٣

صورة ٤

لوحة رقم ٣

مربعات خزفية ذات زخارف نباتية و هندسية

صورة ٥ : عناصر مرسومة بلأسلوب الأوروبي

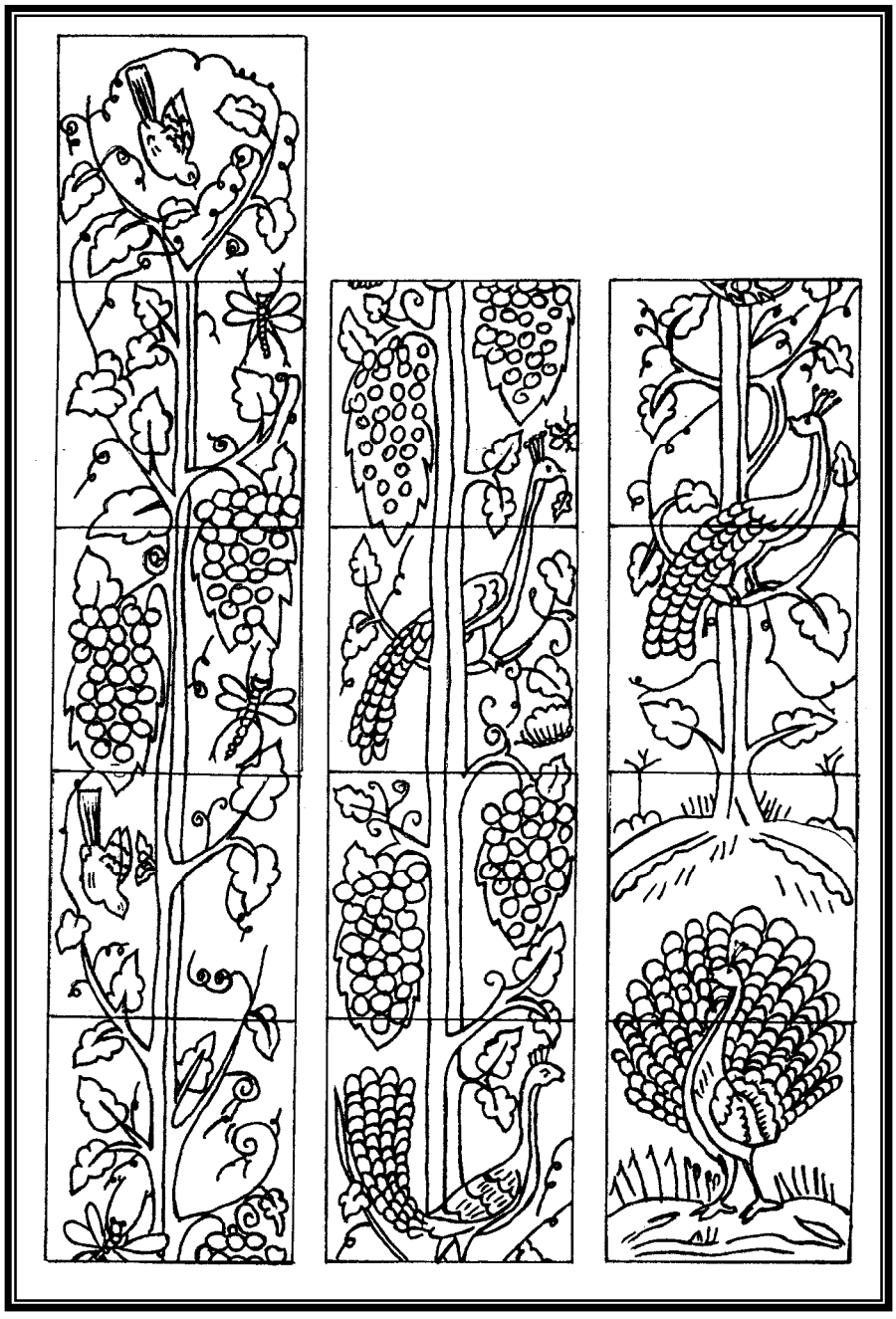

(شكل) لوحة من المربعات الخزفية تمثل شجرة العنب و طائر الطاووس
(عن: لعرج)

لوحة رقم ٤
مجموعة مربعات خزفية تمثل ناظر طبيعية

لوحة رقم ٥
مجموعة مربعات خزفية تمثل منازل ريفية و آثار

صورة١

صورة٢

لوحة رقم ٦

مربعات خزفية ساد انتشارها في كسوات الجدران و إطارات العقود

صورة ٣

صورة ٤

رسوم لعناصر نباتية تتمثل في عنقود و ورقة العنب

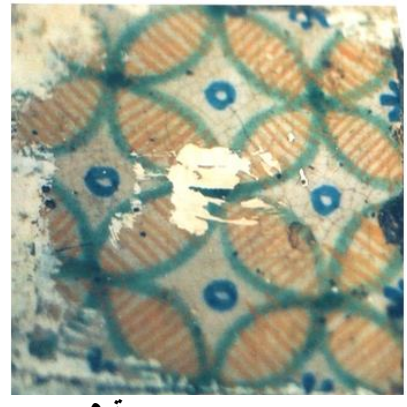

صورة ٥

صورة٦

عناصر زخرفية رسمت بطريقة تجريدية

لوحة رقم ٧

صورة١: عناصر زخرفية تتمثل في سيطرة العنصر الهندسي

صور٢

صورة٣

مربعات خزفية قوام الزخرفة عنصر ثمرة الرمان

صورة٤

زهرية تبرز منها حزمة أزهار و أوراق نباتية مرسومة بالأسلوب الأوروبس

لوحة رقم ٨

صورة ١: تجميعة مربعان خزفية قوام زخارفها عناصر نجمية متراكبة و زهرة القرنفل

صورة ٢

صورة٣

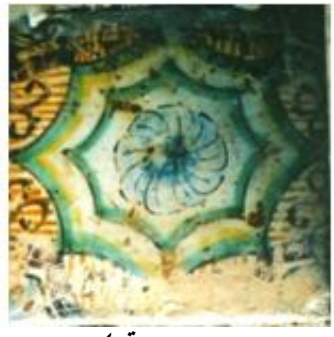

صورة ٤

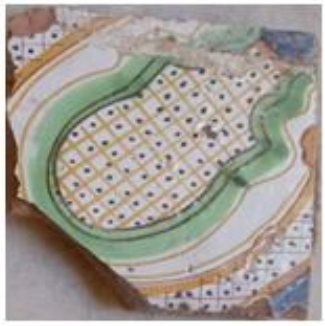

صورة٥

مربعات خزفية ذات عناصر هندسي مرسومة بأسلوب نباتي

صورة٦ زخرفة بعنصر قوس سهام

صورة٧:زخرفة بأسلوب عثماني